

## الاسلام والقومية في البلقان ( دور الدين في تشكل الشعوب )

د. محمد م. الاناؤوط

جامعة اليرموك

تتميز شبه جزيرة البلقان ، او ما يعرف بأوروبا الجنوبية الشرقية ، بتطور «دور خاص» للدين في تشكل الشعوب ، وبالتحديد في تحول المجتمعات من اقوام الى شعوب ، وفي الحركات القومية اللاحقة التي برزت لدى هذه الشعوب للمطالبة بدول قومية . وقد بدأ هذا « الدور الخاص » للدين يتضح مع انتشار المسيحية في البلقان، وخاصة بعد الانقسام الكبير بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية سنة ١٠٥٤ م . ونظرا الى ان الاسلام انتشر في هذه المنطقة ، كما لم ينتشر في أية منطقة أخرى في أوروبا، فمن المثير ان نتعرف هنا على ما واجه الاسلام ، او ما قام به الاسلام في هذه المنطقة .

### مدخل :

طالما ان الموضوع لا يرتبط بالاسلام فقط بل بدور سابق للمسيحية أيضا فمن الضروري في هذه الحالة ان نتعرف على بعض المعطيات التاريخية العامة، التي ساهمت فيما بعد في تبلور الشخصية الخاصة للمنطقة .

كانت شبه جزيرة البلقان في العصر القديم تتميز بوجود عدة مدن - دول في أقصى الجنوب وجزر بحر ايجيه تمثل الحضارة اليونانية المتقدمة بالنسبة لوقتها ومحيطها ، وبوجود ثلاثة مجموعات من الاقوام القوية في وسط المنطقة التي تمتد من البحر الاسود الى البحر الادرياتيكي :

١ - التراقيون في الشرق ( تراقيا ) وهم من القبائل الهندوأوروبية التي استقرت قديما في المنطقة الممتدة من بحر ايجيه حتى جبال الكاربات في الشمال . وقد اعتبرهم المؤرخ هيرودوت في زمنه ( ق ٥ ق.م ) من أكبر شعوب العالم بعد الهنود ،

(\*) كتب هذا البحث في صيف ١٩٩١ وقدم للنشر في صيف ١٩٩٣ .

دراسات تاريخية ، العددان ٤٧ و ٤٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٩٣ .

وكانت لهم حضارة متميزة الا أن لغتهم لم تدون كما أنهم لم يكونوا وحدة سياسية ،  
ولذلك ذابوا لاحقا في الشعوب المجاورة (١) .

٢ - المكدونيون في الوسط ( مكدونيا ) ، وهم أيضا من القبائل الهندوأوروبية التي استقرت قديما في المنطقة مع أن العلماء ما زالوا يختلفون حول أصولهم . وقد تعرضوا لتأثير أكبر من الحضارة اليونانية المجاورة وخاصة بعد قيام ملكهم فيليب ( ٣٥٩ - ٣٣٦ ق.م ) بالسيطرة على المدن - الدويلات اليونانية المجاورة (٢) .

٣ - الاليريون في الغرب ( اليريا ) وهم أيضا من القبائل الهندوأوروبية القديمة أيضا في المنطقة . وقد وجدت بينهم مؤثرات يونانية قديمة نتيجة لتأسيس بعض المستوطنات اليونانية في أراضيهم ( أبولونيا وغيرها ) ، كما تعرضوا لاحقا الى تأثير روماني قوي ، ولكنهم استمروا أخيرا في المنطقة من خلال أحفادهم الالبانيين (٣) .

وقد تمكنت روما فيما بعد من ضم البلقان برمته الى دولتها حتى منتصف القرن الاول قبل الميلاد . ومع ظهور المسيحية في الشرق تسربت أفكارها في أرجاء الدولة بما فيها البلقان ، وهناك ما يشير الى أن المسيحية قد وصلت الى إيريا في عهد الرسول بولس نفسه (٤) . ومن ناحية أخرى كان اتساع الدولة الرومانية قد أصبح عبئا على ادارتها ، فلجأ الامبراطور **ديوكليتيان** ( ٢٧٤ - ٣٠٥ م ) الى تقسيم الامبراطورية الى قسمين - قسم شرقي وقسم غربي (٥) ، ثم تكرر هذا التقسيم نهائيا سنة ٣٩٥ م من قبل الامبراطور **تيودور الكبير** ( ٣٧٨ - ٣٩٥ م ) . وما يهمنا هنا ان خط التقسيم النهائي للدولة الرومانية بين الشرق والغرب ، الذي كان يمتد على طول البحر الادرياتي ثم على طول مجرى انهار درينا Drina وسافا Sava والدانوب ، سيصبح قدرا تاريخيا لانه سيكون هو نفسه الحد الفاصل بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية (٦) . وأكثر من هذا ان هذا التقسيم الديني للبلقان الى شرق وغرب سيكون لاحقا الاساس لتشكل شعوب جديدة .

بعد هذا المدخل يبدو من الاهمية بمكان أن نشير الى حدثين متداخلين ، من حيث الزمان والمكان ، كان لهما الاثر الكبير في تبلور « الدور الخاص » للدين في شبه جزيرة البلقان :

١ - تمايز وتطور الكنيسة الشرقية - الارثوذكسية .

٢ - قدوم السلاف وتوطنهم في البلقان .

وفيما يتعلق بتمايز الكنيسة الارثوذكسية وتطورها ، فقد أصبح من المعروف ان جذور الخلاف بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما تعود الى عدة قرون قبل تكرس « الانقسام الكبير » سنة ١٠٥٤ م بين الكنيستين (٧) . وتجدر الاشارة هنا الى ان الصراع حول شبه جزيرة البلقان المهمة للطرفين ، وبالتحديد تنافس الكنيستين حول استمالة حكام الدول الجديدة في المنطقة ، كبلغاريا ، خلال القرن التاسع ، كانت من الاسباب الرئيسة التي عمقت الخلاف بين الكنيستين وأوصلت الى « الانقسام الكبير » في القرن الحادي عشر (٨) . وما يهمنا هنا ان الكنيسة الارثوذكسية اخذت منذ البداية تتميز بارتباطها الوثيق بالدولة الى حد أنه أصبح من الصعب تصور الكنيسة دون دولة والدولة دون كنيسة (٩) . والمهم هنا ان هذا النمط ، أو « المثل الاعلى البيزنطي » Byzantine ideal ، للعلاقة بين الكنيسة والدولة سيتحول الى مصدر إلهام للدول الجديدة التي تشكلت في البلقان بعد استقرار السلاف في المنطقة (١٠) .

اما فيما يتعلق بقدوم السلاف وتوطنهم ، فقد تم على شكل موجات قوية ومتلاحقة خلال القرنين السادس والسابع للميلاد ، اذ أخذت القبائل السلافية البربرية في عبور الدانوب والتغلغل نحو الجنوب باستمرار . وقد أخذ هذا التغلغل شكلا جارفا للسكان الاصليين بحيث طغى الطابع السلافي منذ ذلك الحين على شبه جزيرة البلقان . وهكذا باستثناء بعض الاليريين الذين احتموا بالمناطق المرتفعة والجبال التي تكثر في بلادهم ، وبعض اليونانيين في أقصى الجنوب الذين نجوا بفضل بعدهم عن مركز البلقان الذي استوطنه السلاف بكثافة ، لم يعد من السكان الاصليين الا بقايا مشتتة هنا وهناك (١١) .

بعد هذه الموجة السلافية الكبيرة التي غطت معظم البلقان عبرت الدانوب في بداية القرن السابع موجة طورانية ( بلغارية ) صغيرة بقيادة الخان اسباروخ واستقرت في شمال شرق البلقان ، حيث تحالفت مع السلاف الذين سبقوا واستوطنوا المنطقة ، وأرغمت الدولة البيزنطية سنة ٦٨١ م على الاعتراف بها كقوة جديدة : بلغاريا (١٢) .

ان تشكل بلغاريا ، وبالتحديد تشكل الشعب البلغاري الجديد ، يعتبر أفضل نموذج لتوضيح « الدور الخاص » الذي سيميز به الدين لاحقا في البلقان فقد كان هذا الكيان الجديد قد تشكل نتيجة تحالف بين اقلية طورانية ( بلغارية ) واكثرية هندوأوربية ( سلافية ) . وقد بقيت الاقلية البلغارية حوالي قرنين من الزمن تمثل الهيئة الحاكمة ، بينما كانت الاكثرية السلافية تمثل الرعية المحكومة . وكان التقارب والتداخل بين الطرفين محدودا طوال ما بقي كل طرف يحتفظ بديانته الوثنية ، وبالتحديد بآلهته التي تختلف عن آلهة الطرف الاخر . ولكن عندما اعتنق

الطرفان ديانة واحدة ( المسيحية ) زال الحاجز الذي كان يفصل بينهما ويمنع امتزاجهما (١٢) .

وتجدر الإشارة هنا الى ان بلغاريا كانت قد توسعت كثيرا بعد موت الخان اسباروخ ، وخاصة في عهد الخان كروم ( ٨٠٣ - ٨١٤ م ) وغيره ، حتى أصبحت في منتصف القرن التاسع الميلادي من أكبر وأقوى الدول في المنطقة . وبسبب هذا الموقع الذي احتلته بلغاريا في شبه جزيرة البلقان فقد أصبحت كل من الكنيستين الشرقية والغربية حريصة على نشر المسيحية فيها لاجتذابها الى طرفها . وكان على رأس الدولة البلغارية حينئذ الأمير بوريس ( ٨٥٢ - ٨٨٩ م ) ، الذي أراد الافادة من هذا التنافس بين الكنيستين لتعزيز سلطته . كان الأمير بوريس واعيا لدور الكنيسة في تعزيز الدولة الا انه كان يدرك أيضا المخاطر السياسية للارتباط الديني ، سواء بالقسطنطينية أو بروما ، ولذلك كان يفضل حلا يحافظ به على استقلاله السياسي (١٤) . وهكذا بقي الأمير بوريس عدة سنوات مترددا بين روما والقسطنطينية، الى ان ارتبط أخيرا بالكنيسة الشرقية بعد أن ضمن محافظة الكنيسة البلغارية على تنظيمها الخاص (١٥) . وقد عزز الأمير بوريس سياسته الاستقلالية بقرار مهم يقضي باعتبار اللغة السلافية اللغة الرسمية للكنيسة والدولة على حد سواء ، مما جعل بلغاريا تتحول الى مركز للثقافة السلافية في المنطقة خلال عدة قرون (١٦) .

هكذا ولدت الكنيسة البلغارية من فوق ، من الدولة ، لتعزيز مكانة الدولة ، وأصبحت المسيحية (( الارثوذكسية ) ديانة رسمية ( وحيدة ) للدولة البلغارية . ومع هذا التوحد ، الذي كان يستلهم « المثل الاعلى البيزنطي » كما بينا ، برزت أركان المثلث الجديد ( دولة واحدة - كنيسة واحدة - لغة واحدة ) . وكان لهذا المثلث مغزى كبير اذ تحول الى اطار لتشكيل شعب جديد . فمع وجود ديانة واحدة ولغة واحدة أصبح في الامكان اندماج الطرفين الأساسيين في بلغاريا ، أي البلغار الطورانيين والسلاف الهندوأوربيين ، ليتكون بهذا الشكل شعب جديد (١٧) . الا أن هذا الكيان الجديد لم يقتصر على اندماج هذين العنصرين بل كان يشمل أيضا اندماج بعض العناصر المجاورة من السلاف وغير السلاف ، من الصربيين والالبانيين ، التي لم تكن لها كنيسة خاصة بها . فمع وجود المثلث الجديد ( الدولة الواحدة - الكنيسة الواحدة - اللغة الواحدة ) أصبح تعبير « بلغاري » يضم كل من ينضوي ضمن هذا المثلث (١٨) .

ان هذه « التجربة » البلغارية الرائدة ستتكرر لاحقا مع دولة جديدة مجاورة هي صربيا . وكان الصربيون ، وهم من الاقوام السلافية ، قد استفادوا من انتصار بيزنطة على الدولة البلغارية وانشأوا امارة صغيرة تحت زعامة ستيفان نيمانيا

( ت ١٩٦٦ م ) ، مؤسس سلالة نيمانيتش التي حكمت صربيا نحو قرنين . وقد تحولت هذه الامارة الى دولة / مملكة في عهد ابنه ستيفان الثاني ( ١٩٦ - ١٢٢٧ م ) ، واكتسبت كنيستها الخاصة برعاية الابن الاخر سافا Sava . وكما كان الامر مع الامير بوريس فقد تقرب الامير ستيفان أولا من البابا حتى انه تتوج باسمه سنة ١٢١٧ وأصبح بذلك أول ملك متوج في صربيا ، الا أنه تحول بعد ذلك باتجاه بطريرك القسطنطينية . وفي الواقع بقيت سلالة نيمانيتش مترددة بين روما والقسطنطينية حوالي قرن ( ١٢١٧ - ١٣٠٨ م ) ، الى ان انحازت أخيرا الى الكنيسة الشرقية وأخذت في اضطهاد الكاثوليك لديها ( ١٩ ) ، وهكذا ، وبوجود كنيسة صربية ، مرتبطة بالدولة على « النمط البيزنطي » ، لم يعد هناك ذوبان للصرب في البوتقة البلغارية بل تشكلت لدينا الان بوتقة صربية موازية . وبعبارة أخرى فقد أصبح تعبير « صربي » يعني الشخص القاطن داخل حدود الدولة الصربية والتابع للكنيسة الصربية بغض النظر عن أصله . وهكذا ، وبفضل المثلث الجديد ايضا ( الدولة الواحدة - الكنيسة الواحدة - اللغة الواحدة ) أخذ يتكون الشعب الصربي بروج ارثوذكسية متميزة ( ٢٠ ) .

ان هذا الدور الجديد للدين يتضح أكثر مع نموذج الدولة الاخرى التي برزت الى جوار صربيا ، هي كرواتيا . وتجدر الإشارة هنا الى ان الكروات هم أقرب السلاف الى الصرب ، ولغتهما تكاد تكون واحدة ولذلك يطلق عليها « اللغة الصربو كرواتية » أو « اللغة الكرواتو صربية » . الا أن كرواتيا كانت تقع على الحدود الفاصلة التي أشرنا اليها بين مناطق الكنيسة الشرقية ومناطق الكنيسة الغربية ، ولذلك فقد كان الطبيعي أن يكون لكل كنيسة تأثيرها ، وأن تسعى كل من الكنيستين الى ضم كرواتيا . اليها . وكانت كرواتيا قد سبق صربيا في بروزها كدولة ، وكان الامير توميسلاف ( ٩١٠ - ٩٢٨ م ) أول من حمل لقب ملك . الا أن موقع كرواتيا ، كما سبق ، ادى مع الزمن الى بروز اتجاهين بين رجال الدين : اتجاه يفضل الارتباط مع روما والكنيسة الغربية ، مع ما يعني ذلك من اعتماد اللاتينية في طقوس الكنيسة ، واتجاه ثان يريد الارتباط مع القسطنطينية والكنيسة الشرقية ، مع ما يميز ذلك من استخدام السلافية في الطقوس الكنسية . وقد استمر هذا التردد بين الشرق والغرب نحو قرن من الزمن أيضا الى أن قرر الملك زفونومير ( ١٠٧٥ - ١٠٨٩ م ) الارتباط مع روما والكنيسة الغربية ( ٢١ ) .

لقد كان لهذا القرار نتائج بعيدة المدى على المنطقة . فنظرا للتجاور والتداخل في بعض المناطق ، بالإضافة الى التقارب السلالي في الاصل ، أصبح الفرز الان يتم بسرعة بين الطرفين والدولتين على أساس الدين . فقد أصبح تعبير « كرواتي » يعني في الدرجة الاولى الانتماء الى الكنيسة الكاثوليكية ( الكرواتية ) ، وتعبر « صربي »

يعني اولا الانتماء الى الكنيسة الصربية ( الارثوذكسية ) . وهكذا تحولت كل كنيسة الى بوتقة ليتشكل في كل واحدة الشعب الكرواتي أو الشعب الصربي بالاستناد الى الدين (٢٢) . وقد تعمق هذا الفرز بين الشعبين ، المنقسمين الى كنيستين مختلفتين ، بعد أن أخذ الكرواتيون بالحروف اللاتينية لكتابتهم وبقى الصربون يكتبون لغتهم بالحروف السلافية أو الكيريلية ، وبعد أن ارتبط الكرواتيون منذ ذلك الحين بالعالم الكاثوليكي الغربي بينما بقي الصربون جزءا من العالم الشرقي الارثوذكسي (٢٣) .

ويبدو أخيرا هذا الدور الجديد للدين بشكل أوضح اذا اخذنا نموذجين آخرين مختلفين : البوسنة والباينا .

تقع البوسنة بين صربيا وكرواتيا (٢٤) ، وهكذا فهي تمتد في المناطق التي يتقاطع فيها تأثير الكنيسة الشرقية وتأثير الكنيسة الغربية . وقد أدى هذا الموقع الى وضع فريد حيث نشأت هناك كنيسة ثالثة أو « كنيسة بوسنوية » لا ترتبط بالكنيسة الشرقية ولا بالكنيسة الغربية (٢٥) ، كما برزت هناك دولة مستقلة تتوج فيها الامر ستيفان ترفتكو (١٣٥٣ - ١٣٩١) بلقب « ملك الصربيين والبوسنة والكرواتيين » (٢٦) . ونظرا الى أهمية البوسنة في نظر الكنيستين فقد اعتبرت « الكنيسة البوسنوية » « هرطقية » أو « متمردة » ، وتحولت الى هدف متواصل للكنيسة الكاثوليكية . وهكذا فقد تولت هنغاريا ، بتحريض متواصل من البابا ، دور اعادة البوسنة الى الحضيرة الكاثوليكية . وقد نجح الملك الهنغاري جيغموند في ارغام ملك البوسنة ستيبان دايشا على الاعتراف بسلطته سنة ١٣٩٣ ، كما قام خلال ١٤٠٨ - ١٤١٠ م بقيادة عدة حملات لاختضاع الامراء المتمردين . الا ان تدخل هنغاريا بهذا الشكل لاختضاع البوسنة دفع بعض الامراء الى الاستعانة بالأتراك العثمانيين ، مما جعل البوسنة تسقط في يدهم اخيرا (٢٧) . وبعبارة أخرى لم تنجح البوغوميلية أو « الكنيسة البوسنوية » بتوطيد نفسها ككنيسة مستقلة ووحيدة ، على نمط ما حصل في كرواتيا وصربيا ، اذ بقيت في المنطقة « جيوب » صربية ارثوذكسية وكرواتية كاثوليكية من ناحية كما أن الضغوط الخارجية من ناحية أخرى أثرت كثيرا في خلق حالة من عدم الاستقرار في البوسنة الى أن سقطت بيد العثمانيين سنة ١٤٦٣ م .

اما فيما يتعلق بالباينا فالوضع كان يختلف تماما . فقد كان خط التقسيم بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية يمس الباينا الشمالية مما جعل تلك المنطقة تقع تحت تأثير الكنيسة الغربية ، في حين بقيت الباينا الوسطى والجنوبية تحت تأثير الكنيسة الشرقية . ومن ناحية أخرى فقد برزت في الباينا الوسطى في نهاية القرن الثاني عشر ( ١١٩٠ م ) امارة محلية على نمط ما حدث في بلغاريا وصربيا وكرواتيا ،

الا أنها لم تتطور كغيرها الى مملكة مستقلة(٢٨) وبعد هذا التعثر برز عدة حكام محليين من العائلات القوية (توبيا ، دو كاجين وغيرها ) في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . الا ان هؤلاء بقوا يتنافسون فيما بينهم ويختلفون في تحالفهم مع الدول المجاورة الى أن خضعوا أخيرا للاتراك العثمانيين في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر . وهكذا ، ونظرا لعدم تشكل دولة البانية واحدة وكنيسة البانية واحدة على نمط ما حصل في بلغاريا وصربيا مثلا، بقي الالبان الارثوذكس يرتبطون بالكنايس الارثوذكسية المجاورة ، التابعة للدول المستقلة . فهم « روم » ( يونان ) في بعض المناطق التي كانوا يتبعون فيها الكنيسة البيزنطية ، وهم « بلغار » في المناطق التي يتبعون فيها الكنيسة البلغارية ، و « صرب » في بقية المناطق التي كانوا يتبعون فيها الكنيسة الصربية . وهكذا ، ونتيجة لعدم وجود كنيسة خاصة بهم تعتمد على لغتهم ، كان الالبانيون مضطرين أن يؤدوا الطقوس الدينية في لغات أخرى وان يتعلموا في لغات أخرى ، نتيجة للعلاقة الوثيقة بين الدين والتعليم ، وان يطلقوا على أولادهم أسماء أخرى حسب الكنائس التي يتبعونها ( أسماء صربية ، بلغارية ، يونانية ) ، وان يخضعوا أخيرا للدولة التي تمثلها الكنيسة . وبعبارة أخرى كان الالبانيون في هذه الحالة يذوبون بالتدريج في الشعوب المجاورة ، ولم ينقذهم من خطر الذوبان الا الدين الجديد - الاسلام(٢٩) .

بالاستناد الى ما تقدم يمكن القول انه خلال أربعة قرون ، وبالتحديد منذ انتشار المسيحية وسط السلاف في البلقان في منتصف القرن التاسع ، وحتى وصول الاسلام الى البلقان مع العثمانيين في منتصف القرن الرابع عشر ، تبلور في المنطقة دور خاص للدين ( المسيحية ) تمثل في تسريع الانتقال من مرحلة الاقوام الى مرحلة الشعوب ، وبالتحديد في تشكل شعوب جديدة كالشعب البلغاري والشعب الكرواتي والشعب الصربي

ومع انتقال الاتراك العثمانيين الى البلقان منذ منتصف القرن الرابع عشر تشكلت بسرعة دولة جديدة من نوع خاص ، تتوسع باسم الاسلام ولكنها لا تصر على الاسلام كدين وحيد للدولة(٣٠) . وفي الواقع لقد كان الخلاف والتنافس بين الحكام المحليين احد العوامل المساعدة على توسع الدولة العثمانية في ذلك الجزء من أوربا ، اذ ان القوات العثمانية كانت تستدعى أحيانا من قبل احد هؤلاء الحكام المحليين للتغلب على أحد منافسيه ، كما ان هذه القوات كانت تتقدم أحيانا في اراضي أحد هؤلاء الحكام وسط تجاهل من منافسيه المجاورين(٣١) . ومن ناحية أخرى كانت الدولة العثمانية تفضل في البداية ان تترك الحكام المحليين على رأس اماراتهم ، بعد الاقرار بخضوعهم للسلطان ، ولكنها كانت ، في وقت لاحق ومناسب ، تقوم بتطبيق الحكم العثماني المباشر . وفي الواقع كان تطبيق الحكم المباشر يعني تطبيق نظام التيمار،

ولكن هذا النظام نفسه كان يسمح في البداية باستمرار النبلاء المحليين في مراكزهم دون اعتناق الاسلام كشرط مسبق ، الا ان الامر يستخلف لاحقا مع توطد الوجود العثماني في اوربا (٣٢) .

وفي هذا الاطار تجدر الاشارة الى ان الدولة العثمانية بادرت في بداية الامر الى خلق وجود اسلامي كبير ، موال لها بطبيعة الحال ، في شرق ووسط البلقان ، وذلك بتشجيع الاتراك على الانتقال والتوطن هناك (٣٣) ، في حين فضلت خلق وجود اسلامي محلي في غرب البلقان ( البانيا والبوسنة ) عن طريق تشجيع السكان المحليين على اعتناق الاسلام . وفي هذا الاتجاه قامت مؤسسة الدفشرمة العثمانية الجديدة بدور مهم في خلق الاجيال الاولى من المسلمين المحليين التي ستقوم بدورها في هذه المهمة ، ونشر الاسلام في موطنها الاصلي (٣٤) . وقد ترافق مع هذا اعتناق عدد متزايد من النبلاء المحليين للاسلام ، بعد ان ادركوا ان الاسلام يفتح لهم باب المساواة مع النخبة الحاكمة ويتيح لهم الصعود حتى أعلى المراكز ، بينما فضل عدد اخر الهجرة الى ايطاليا لمتابعة المقاومة من هناك (٣٥) .

ان هذا التحول للاسلام من القمة ، للاعتبارات السياسية في الدرجة الاولى ، كان له اثره المهم على انطلاق التحول للاسلام من القاعدة ايضا . الا انه لا بد ان تأخذ بعين الاعتبار ايضا الوضع او التأزم الاجتماعي في بعض الجهات . ففي البوسنة على سبيل المثال ، التي تميزت بوجود كثيف للاقنان ، كان اعتناق الاسلام يعني فيما يعني التحرر من القنانة (٣٦) . ومن ناحية أخرى تجدر الاشارة ايضا الى تأثير الارتفاع المتواصل في الجزية المفروضة على السكان المسيحيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أي في الوقت الذي زاد فيه انتشار الاسلام بشكل واضح في بعض الجهات كالبانيا (٣٧) .

وهكذا ، وبعد نحو ثلاثة قرون ( ١٥ - ١٧ ) ، وحين استقر الوضع الديني الى حد ما في المنطقة ، نجد ان الاسلام بقي يقتصر على الاقلية في بعض الجهات ، في حين أصبح يمثل الاغلبية في بعض الجهات الاخرى . فقد انتشر الاسلام بشكل محدود في اليونان وبلغاريا وصربيا وكرواتيا ، بينما انتشر بشكل واسع في البانيا والبوسنة .

وبالاستناد الى هذا يبدو من النظرة الاولى أن انتشار الاسلام كان محدودا بين الشعوب التي كانت تتمتع بكنائس قوية ، أو كما يقال الان « كنائس قومية » ، حيث كانت كل كنيسة تمثل دولة ولغة وثقافة معينة . وفي المقابل نجد الاسلام ينشر بشكل واسع في البانيا والبوسنة الى الحد الذي شمل غالبية السكان . وهنا نرى أيضا ، بالإضافة الى الاسباب السابقة ، ان انتشار الاسلام بهذا الشكل في هاتين الجهتين



يؤكد ما اشرنا اليه سابقا ولكنه يرتبط هنا بحالة معاكسة ، أي عدم وجود كنيسة قوية ومستقرة على نمط ما كان في بلغاريا وصربيا وكرواتيا المجاورة . فقد رأينا سابقا كيف أن الظروف لم تسمح بتشكيل دولة ألبانية واحدة وكنيسة ألبانية واحدة وهذا ما ترك الألبانيين يتعرضون للذوبان في الشعوب المجاورة . أما في البوسنة فقد تشكل دولة وكنيسة أيضا ، إلا أن هذه الكنيسة « الهرطقية » لم تنل الاعتراف ولم تنعم بالاستقرار نتيجة للتهديد المتواصل من الخارج من هنغاريا الكاثوليكية بتحريض من روما .

ومع هذا الانتشار الاستثنائي للإسلام في هاتين الناحيتين من البلقان يمكن أن يدور في الذهن السؤال التالي: ما تأثير انتشار الإسلام في البانيا والبوسنة، وبالتحديد بالنسبة لأولئك الذين اعتنقوه وأصبحوا الأغلبية هناك .

يميل الباحثون في الجواب على هذا السؤال إلى التسليم بدور « خاص » أو « قومي » للإسلام أيضا في هذه المنطقة إذ أنه ساهم في الواقع في تشكيل شعبين جديدين : الشعب الألباني والشعب المسلماني . ولا شك هنا أنه مما ساعد الإسلام على القيام بهذا الدور طبيعة هذا الدين نفسه . فالإسلام ليس مجرد عقائد وشعائر بل هو أيضا نمط حياة يتميز بسرعة الجماعة المؤمنة به في الطعام واللباس والعادات والتقاليد .. الخ (٢٨) .

فيما يتعلق بالألبانيين رأينا أن عدم وجود كنيسة خاصة بهم كان يعرضهم إلى خطر الذوبان في الشعوب المجاورة . وقد أدى هذا الوضع خلال عدة قرون ( ق ٩-١٤ ) إلى ذوبان قسم منهم في الشعوب المجاورة ، حتى أن بعض الباحثين المعنيين يذهبون إلى حد التسليم بأن الألبانيين كان يمكن أن يذوبوا تماما بين الشعوب المحيطة بهم لولا اعتناقهم للإسلام (٢٩) . إلا أنه مع انتشار الإسلام في وسط الألبانيين منذ نهاية القرن ١٤ وبداية القرن ١٥ وجد حاجز قوى بين الألبانيين الذين اعتنقوا الإسلام وبين الشعوب المجاورة الذي بقي معظمها يدين بالمسيحية كالشعب البلغاري، والشعب الصربي والشعب اليوناني ، ولم يعد الألبانيون يتزوجون كما في السابق مع الشعوب المجاورة بمباركة الكنيسة ، ولا يطلقون على أولادهم أسماء بلغارية أو صربية يختارها لهم الأسقف ، ولا يتعلمون اللغات الصربية أو البلغارية أو اليونانية من أجل الذهاب إلى الكنيسة والقيام بالشعائر الدينية وقد خلق هذا الوضع فرصة تاريخية للألبانيين للتماسك من جديد بعد أن كانوا مهددين بالذوبان . ولم يعد الأمر يقتصر على النجاة من الذوبان في الشعوب المجاورة بل أصبح الألبانيون بعد هذا التماسك قادرين على امتصاص بعض العناصر المجاورة لهم كالسلاف وحتى الأتراك (٤٠) .

وبفضل هذا التحول الجديد برز الالبانيون في المنطقة كشعب وباسم جديد يعبر عن هذا الانعطاف التاريخي . فقد كان الالبانيون حتى ذلك الحين يعرفون بأكثر من اسم ، حسب المناطق والاقاليم التي يعيشون فيها ، مثل آربر ، وكلمند ، وابروت *epirotë , kelmendë , arbër* الخ . أما بعد هذا التحول فقد أخذ الالبانيون يشتهرون منذ نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر باسم واحد هو *shqiptarë* يدل على لغتهم أو على رابطتهم اللغوية *shqip shqiptarë* (٤١) وهنا تجدر الإشارة الى ان اسم الشعب يعبر عن مرحلة معينة من تطور الشعوب ، اذ انه تعبير عن ان افراد الشعب ( الانثوس ) شعروا بانهم رابطة وشعب من الشعوب (٤٢) .

وعلى الرغم من هذا الدور الايجابي أو الانقاذي للاسلام فيما يتعلق بالالبانيين نجد أن الاعتراف بهذا الدور تأخر كثيرا نتيجة للظروف الخاصة التي أحاطت بتطور الشعب الالباني . ففي مطلع هذا القرن (١٩١٨) توزع الالبانيون بالتساوي تقريبا بين الدولتين الجديديتين المتجاورتين - ألبانيا ويوغسلافيا . وقد بدأ الاهتمام بهذا الموضوع في ألبانيا أولا ، التي أصبحت الآن دولة قومية للالبانيين ، حيث أخذت تبرز اشارات رائدة منذ الثلاثينيات (٤٣) . وفي خلال الاربعينيات نشر في تيرانا كتابان جديدان يعرضان بشكل مباشر لهذا الموضوع ويقران بشكل صريح بالدور الايجابي أو الانقاذي للاسلام (٤٤) . أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد برزت لدينا مفارقة مثيرة تتعلق بالموقف من هذا الموضوع . فقد برز بعد الحرب نظامان شيوعيان في ألبانيا ويوغسلافيا ، ولكن مع فارق مهم يتعلق بالدين ، فقد كان موقف النظام الشيوعي في يوغسلافيا منفتحا على الدين (٤٥) ، ولذلك وجد من يتابع الاهتمام بهذا الموضوع . ففي مطلع السبعينات صدرت دراسة رائدة للمؤرخ حسن كلشي (٤٦) ، وتعرض لهذا الموضوع بفصل خاص المؤرخ د. اسكندر رضا في كتاب له صدر في مطلع الثمانينات (٤٧) ، كما تناوله أخيرا في دراسة جديدة المؤرخ د. محمد بيراكو في مطلع التسعينات (٤٨) . أما في ألبانيا فقد بقي موقف النظام من الدين متشددا ، حتى أنه لجأ في سنة ١٩٦٧ الى إلغاء اعترافه تماما بالدين والمؤسسات الدينية (٤٩) . وحاول هذا النظام باستمرار تحجيم دور الدين وحتى تشويه دور الدين ، أي دين ، في تاريخ الشعب الالباني . وفيما يتعلق بالاسلام نجد الصورة قاتمة ، وأحادية ، وغير موضوعية ، تشكك بدوافع اعتناق الاسلام وتشويه نتائج اعتناق الالبانيين للاسلام (٥٠) . وعلى الرغم من هذا لدينا استثناء في كتاب المؤرخ الالباني المعروف ضيا شكودرا « المدينة الالبانية » الذي صدر في تيرانا خلال ١٩٨٤ (٥١) .

أما فيما يتعلق بالبوسنة فالوضع يختلف الى حد ما . فالبوسنة ، كما رأينا ، منطقة تقع بين كرواتيا وصربيا . وهي بهذا منطقة تداخل وتقاطع بين الصربيين والكرواتيين . وقد شهدت هذه المنطقة محاولة لتأسيس كنيسة خاصة ، غير ارثوذكسية كما في صربيا وغير كاثوليكية كما في كرواتيا ، الا أن هذه المحاولة لم تأخذ فرصتها للنجاح نتيجة للضغوط المتواصلة من الخارج وخاصة من هنغاريا الكاثوليكية . ومع انتشار الاسلام في هذه المنطقة ، نتيجة لاقبال انصار هذه الكنيسة البوغوميلية على اعتناقه (٥٢)، كان من الطبيعي ان يتميز المسلمون عن غيرهم في المناطق المجاورة بتقاليدهم وعاداتهم الجديدة النابعة او المتأثرة بالدين الجديد (٥٣) . وهكذا نشأ مع الزمن شعب جديد في البوسنة الى جانب الشعبين الآخرين ، الشعب الصربي والشعب الكرواتي . وقد شاهدنا سابقا تأثير الدين في تعميق الفرز بين الكرواتيين والصربيين على أساس ديني ، وبالتحديد دور الدين في تكوين الشعب الكرواتي والشعب الصربي ، أما الان فلدينا نموذج مماثل لدور الاسلام في تشكيل شعب جديد . فقد برز واقع جديد يتمثل في تكون ثلاثة شعوب متجاورة ، بالاستناد الى الدين ، تتكلم لغة واحدة - اللغة الصربوكرواتية (٥٤) . الا أن المشكلة بقيت في تسمية هذا المزيج الكرواتي - الصربي الجديد (٥٥) ، أو الشعب الجديد الذي تشكل بالتدريج نتيجة لاعتناق الاسلام . فقد شمل انتشار الاسلام في البداية غالبية السكان ، ولذلك فقد كان تعبير «بوسنوي» يترادف تقريبا مع تعبير «مسلم» ، كما ان المسلمين أنفسهم باتوا يسمون أنفسهم «بوسنويين» . الا أن عدد المسلمين هناك أخذ ينخفض منذ القرن الثامن عشر نتيجة للحروب والمجاعات والهجرات حتى أصبح مساويا لعدد المسيحيين (٥٦) . وفي هذه الحالة لم يعد تعبير «بوسنوي» ينطبق فقط على ذلك القسم من السكان الذي اعتنق الاسلام ، بل يشمل ايضا القسم الاخر الذي لم يعتنق هذا الدين . وهكذا فقد بقي أولئك الذين اعتنقوا الاسلام يعتبرون أنفسهم «بوسنويين» و «مسلمين» ، ثم شاع هذا التعبير الاخر «المسلمون» Muslimani فيما بعد وتحول الى اسم خاص بهذا الشعب الجديد ، أي «الشعب المسلماني» Muslimanski narod ، الذي انتزع اخيرا الاعتراف به على قدم المساواة مع الشعوب الاخرى في يوغسلافيا (٥٧) . وفي حدود ما نعرف فان هذا الشعب قد يكون الوحيد في العالم الذي يوحى اسمه بمصدر تكوينه - الاسلام .

وبالاستناد الى كل ما تقدم يمكن القول ان الاسلام انتشر في منطقة تميزت بدور خاص للدين في تشكيل الشعوب ، وبالتحديد في الانتقال التاريخي من مرحلة الاقوام الى مرحلة الشعوب . وربما يكون قد أصبح من الواضح ان انتشار الاسلام في منطقة كهذه حمل الاسلام دورا جديدا اذ أنه أنقذ شعبا من حالة الذوبان (الشعب الالباني) ولعب دورا حاسما في تكوين شعب جديد (الشعب المسلماني) . وهكذا مع

نهاية هذه المرحلة الاولى ( أواخر القرن السابع عشر على وجه التقريب ) كانت قد تبلورت في المنطقة عدة شعوب ، نواة لامم جديدة أو لـ « أمم في طور التكون » ، وستبرز في المرحلة الثانية ( ابتداء من القرن الثامن عشر ) حركات قومية في هذه الشعوب تطالب بدول قومية جديدة . وفي هذه المرحلة الثانية أيضا ستبقى العلاقة وثيقة بين الدين والقومية ، ولذلك سيكون من المفيد حقا أن نتابع التعرف على العلاقة بين الدين وبين الحركات القومية الجديدة في البلقان في بحث آخر .

### الحواشي :

منشورات الجامعة اللبنانية - قسم الدراسات التاريخية ١٥ ، ١٩٦٩ ، ص ٥ .

(٣) كان العالم ثونمان Thunmann خلال القرن ١٨ أول من أطلق هذا الرأي القائل باستمرارية الالبانيين في مناطقهم الحالية ، وبالتحديد بانحدارهم من الاليريين . وقد أيد هذا الرأي لاحقا عدد كبير من العلماء كـ مير Pedersen ويكرس Jokl وغيرهم . وفي نهاية القرن ١٩ ظهر رأي آخر يقول بانتقال الالبانيين من قلب البلقان الى المناطق الحالية التي يسكنونها وذلك بالاستناد الى نوع من التقارب بين الالبانية الحالية والتراقية القديمة . وقد بقي هذا الرأي يتنافس في يوغسلافيا ، حيث يعيش اليوم نصف الالبانيين تقريبا ، لاسباب غير علمية الى حسمت الطعنة الجديدة من « موسوعة يوغسلافيا » الامر بالقول ان « الأبحاث اللغوية والتأولوجية والاركيولوجية وغيرها أصبحت تقود نحو الاصل الاليري للغة الالبانية » :

Enciklopedija Jugoslavije , II izdanje, vol. 1, Zagreb 1981,s.

(٤) ورد في الكتاب المقدس في « رسالة بولس الرسول الى أهل رومية » ( اصحاح ١٥ ، ١٩ ) قوله : « حتى اني من اورشليم وما حولها الى الليريكون قد أكملت التبشير بانجيل

(١) R. F. Hoddnott, Bulgaria in antiquity , New York , St . Martin's Press, 1975, pp. 24-32.

وليزيد من التفاصيل حول التراقيين انظر :

R. F. Hoddnott, The Thracians, London, Thames and Hudson, 1981 .

(٢) كان المكدونيون كما نرى يقيمون بين الاليريين واليونانيين القدماء . وهناك من المؤرخين من يراهم على صلة سلاليسية ( اثنية ) بالاليريين :

Barbara Jelavich , History of the Balkans, Cambridge University Press 1987, p. 6.

ولكن هناك من المؤرخين أيضا من يرى ان المكدونيين كانوا على صلة باليونانيين القدماء ، وكانوا يتكلمون « لهجة قريبة من لغة هؤلاء » . انظر مثلا :

N. Hammond - G. Griffith, A History of Macedonia, vol. II, Oxford 1979, pp. 3-54.

وانظر في العربية :

د. اسد رستم ، تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني الى الفتح الروماني ، بيروت ،

والدولة « لدى : د. زبيدة عطا ، الدولة البيزنطية من قسطنطين الى انستاسيوس ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٧ ، ص ٦٢ - ٧٢ .

Steven Runciman , Byzantine civilisation , London , Edward Arnold, 1975, p. 128.

حول قدوم السلاف لدينا أقدم المصادر في كتابات المؤرخين اليونانيين القدماء ، بما في ذلك ما كتبه الامبراطور قسطنطين بورفيريوغنت :

Vizantiski izvori za istorije naroda Jugoslavije I-II, Beograd 1955 - 1959 .

ومن الدراسات الحديثة :

S. Stanojevic, Vizantije i Srbi I' Balkansk poluostrvo do VII veka' Novi Sad 1903; Istorija naroda Jugoslavije I, Beograd 1953, s. 63-104.

وانظر في العربية ترجمة كتاب الامبراطور قسطنطين الذي يتضمن معطيات كثيرة عن السلاف :

ادارة الامبراطورية البيزنطية للامبراطور قسطنطين السابع بورفيريوجنيوس ، عرض وتحليل وتعليق د. محمود سعيد عمران ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ وانظر الفصل القيم المتعلق بالسلاف في كتاب :

د. وسام عبد العزيز فرج ، دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى ، القاهرة ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥ ، ص ٧٣-١٣٣ .

حول تشكل وتطور بلغاريا انظر في العربية : بروفيسور نيكولاي تودوروف ، موجز تاريخ بلغاريا ، ترجمة د. احمد سليمان الاحمد ، دمشق ، دار الثقافة ، ١٩٨١ ، حسن سعيد

المسيح . ويختلف الباحثون هنا حول دلالة « الى الليريكون » ( اليريا ) وهل كان يعني حتى حدود اليريا او حتى اليريا في الداخل : انظر :

(١٠) J. Zeiller, Les Origines chretiennes dans les provinces Danubiennes de l'Empire Romain , Paris 1918, p. 27.

(١١) Gjini Gasper, Skopskoprizrenska biskupijia kroz stoljeca , Zagreb 1986, s. 21.

(٥) صدر مرسوم التقسيم في سنة ٢٨٦ وقد نص على وجود امبراطور بلقب اغسطس في كل قسم ، وفي سنة ٢٩٣ م أدخل ديوكليتيان تعديلا بحيث يصبح لكل اغسطس قيصرًا يتولى ادارة بعض المناطق . وهكذا فقد تولى غالوريوس ، كأول قيصر في هذا النظام ، ادارة ايليريا ومكدونيا واليونان وجزيرة كريت : د. نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، دمشق ١٩٨٥ ص ٤٣ .

(٦) Jelavich, Op. cit., p 10.

(٧) حول ملابسات هذا الانقسام انظر الفصل السادس « العلاقات الكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني » من كتاب : د. عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني حتى اواخر القرن الثاني عشر ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٠ .

(٨) فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ٤٠٩ - ٤١٢ .

Jelavich, Op. cit., p. 12; Donald M. Nicol, Church and Society in the East Centuries of Byzantium, Cambridge 1979, pp. 25 .

وفي العربية لدينا فصل مهم بعنوان « الكنيسة

الان وخاصة في مجال اسماء الانهار والاماكن  
وغير ذلك :

Mahir Domi, Cështje të ioponomisë me burim të huaj , Shqip-tarët dhe trajet e tyre, Tiranë 1982, f. 300-301 .

Jelavich, p. 19.

يبدو هذا الارتباط الوثيق بين القومية  
الصربية ( الصربوية srpstvo )  
والارثوذكسية في القول الشائع « لا يوجد  
صربوية دون ثلاثة أصابع » ( اشارة  
الصليب عند الارثوذكس ):

« Nema srpstva bez tri prsta ».

للتوسع حول هذا انظر :

Dr. Branislav Djurdjev, Uloga  
crkve u starojoj istoriji srpskog  
oaroda.

Jelavich, p. 24.

وانظر في العربية : د. وسام ، ص ١١٩-١٢٠.

وهكذا بالاضافة الى ما تقدم « لا يوجد  
صربوية دون ثلاثة أصابع » برز مع الزمن  
ايضا القول الشائع « الكاثوليكي الصالح  
فقط يمكن أن يكون كرواتيا » :

«Samo dobar katolik moze biti  
dobar Hrvat ».

حول تأثير ودور الدين في هذا المجال انظر:

Todor Kurtovic , Crkva i reli-  
gija u socialitickom samou-  
pravnom drustvu, Beograd  
1978, s. 158-170.

Jelavich, p. 24.

كانت البوسنة في السابق تشمل منطقة  
محدودة حول أعالي مجرى نهر بوسنة

اللمع ، لمحات من تاريخ بلغاريا ، دمشق ،  
دار الثقافة ، ١٩٨١ .

وتجدر الاشارة الى ان هذين الكتابين ، مع  
كتاب اخرى ، قد صدرا بمناسبة الذكرى الـ  
١٣٠٠ لتأسيس بلغاريا .

Jelavich, p. 15.

وانظر ايضا : تودوروف ، ص ١٩ و د. وسام  
ص ١١٥ .

(١٤) للتوسع حول ذلك انظر : نعيم ، ص ٤٠٩  
و د. وسام ، ص ١١١-١١٢ وزيتون ، ص  
٣٣١ - ٣٣٢ .

Jelavich, p. 16 .

(١٦) انظر على سبيل المثال كتاب اللمع ،  
ص ٧٩ - ٩٤ .

Jelavich, p. 16 .

(١٧) وانظر ايضا : د. وسام ، ص ١١٥ واللمع،  
ص ٧٥-٧٦ ، وتودوروف ، ص ٢٩ .

(١٨) « بالنسبة لمؤرخي وكتاب بداية العصور  
الوسطى كانت القومية تحدد بواسطة عاملين:  
الهيئة السياسية والهيئة الدينية ، أي أن  
الفروق اللغوية والانتوغرافية والتاريخية  
والانثربولوجية لم تكن مهمة .. وهكذا نجد  
السلاف وغير السلاف الذين كانوا رعايا  
الامبراطورية البلغارية وتابعين لبطريركية  
اوهريد Ohrid كانوا يسمون « بلغاريين »  
: « Bulgarus »

Kristo Frashëri, Trojet e shqi-  
ptarëve në shek. XV, Kon-  
ferenca e Dytë e Studimeve  
Albanologjike, Tiranë 1965, f.  
110 .

(٢٤) وتجدر الاشارة الى أن هذا التوسع البلغاري  
في الاراضي الابانية خلف اثارا عميقة الى

الرسمية للدولة . وقد امنت البوغوميلية أيضا بشئانية العالم ، بوجود الخير والشر وبوجود البين واحد خالق للعالم الروحي وآخر خالق للعالم المادي ، ويقال لـلاول « اله النور » وللثاني « اله الظلام » . وبالمقارنة مع الكنائس الاخرى لم تكن « الكنيسة البوسنوية » تجمع العصور من الشعب كما لم تكون لنفسها املاك خاصة بها :

Grup autorësh , Historia e shteteve dhe të drejtave të popujve Jugosllavë , ( Istoria drzava i Prava Jugoslovenskih naroda ), Prishtinë 1891, f. 142

Jelavich , p. 25 .

Enciklopedija Jugoslavije , II izdanje, vol. 2, Zagreb 1982 s. 171 - 172 .

G. LL. Arsh - I. G. Senkeviç-N. D. Smirnova, Histori e shkurtë e Shqipnisë, Prishtinë 1967, f. 13 - 14.

يعتبر الباحث س. ستانوفيتش « معركة قوصو » ( كوسوفو Kosovo أو كوسوفا Kosova ) التي جرت سنة ١٣٨٩ بين التحالف الصربي - الالباني - البوسنوي بقيادة الملك الصربي لازار والعيش العثماني بقيادة السلطان العثماني مراد ، والتي انهارت على اثرها الدولة الصربية ، هي الحد الفاصل في وقف هذا الدوبان . وهكذا يقول ستانو يفتش بكل رضوح انه منذ تلك المعركة الحاسمة « توقفت سيورة الدوبان السلافي (الانثي) الذي كان قائما في الجنوب . فقد ادى انتصار وتوسع الانراك الى وقف سيورة التسوية الثقافية والسلاوية (الانثية) في مناطق صربيا الجنوبية التي كانت تسير بشكل ممتاز... » :

Bosna ، ثم توسع مفهوم « البوسنة » لاحقا خلال القرنين الحادي عشر والثالث عشر للبلاد باتجاه الشرق والغرب بعد أن ضمت اليها مناطق كانت تتبع صربيا (راشكا) وكرواتيا :

Enciklopedija Jugoslavije , II izdanje, vol. 2, Zagreb 1982, s. 226 .

- (٢٥) ظهرت في الدولة البيزنطية عدة حركات دينية ، أو « هرطقات » بالتعبير الرسمي ، تنسم بطابع احتجاجي على الفوارق الطبقية الجديدة . ومن أهم هذه الحركات كانت البولسية Palicianism التي برزت بتأثر واضح من المانوية في مطلع القرن التاسع في أعالي الفرات . وقد نجحت هذه الحركة في كسب تأييد السكان وتأسيس « جمهورية » خاصة هناك . وقد حاولت الدولة البيزنطية القضاء على هذه « الجمهورية » دون جدوى ، وسعى الامبراطور باسيل الى ارسال عدة جيوش خلال ٨٦٨-٨٧٠ م الى ان تمكن اخيرا من تحطيم هذه الجمهورية . الا أن الامبراطور باسيل لم يكتف بذلك بل عمد الى نقل اتباع هذه الطريقة الى تراقيا ومكدونيا وتوزيعهم على طول الحدود مع بلغاريا . وبتأثير من هؤلاء انبعثت هناك حركة دينية مشابهة باسم « البوغوميلية » ، نسبة الى الكاهن بوغوميل حيث انتشرت في مكدونيا وصربيا والبوسنة وامتدت حتى ايطاليا وجنوب فرنسا :

Runicman, Byzantine civilisation, p. 118 .

وللتوسع حول البوغوميلية انظر :

Dragan Tashkovski , Bogomilism in Macedonia, Skopje 1975

وقد انتشرت البوغوميلية بشكل خاص في البوسنة حتى اصبحت هناك الديانة

تيمارات كانوا اول من اعتنق الاسلام خلال القرن الخامس عشر : د. عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٤ ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٨٦٣ .

حول ابعاد ونتائج هذا التوطين انظر : (٣٣)

Inalcik, Op. cit., pp. 122 - 128; O.L.Barkan « Les deportations comme methode de peuplement et de colonizacion dans l'Empire Ottoman », Revue de la Faculte des Sciences Economiques, No II, Istanbul 1956; Yasar Yucel, « Turkish Settlement in the Balkane and its Impact, Turkish Review, Vol 1, Ankara .. 1986, pp. 39 - 50 .

للمزيد من التفاصيل حول هذه المؤسسة انظر كتابنا : دراسات ووثائق —————  
الدفترية ، اربد ١٩٩١ . (٣٤)

كان من نتائج هذا الصعود المتواصل بروز مئات الوزراء وعشرات الصدور العظام من الالبانيين الذين تجاوزوا حجمهم بكثير من خلال المناصب التي احتلوها بالمقارنة مع الشعوب الاخرى . (٣٥)

Adem Handzic, «O islamizaciji u sjeveroistocnoj Bosni u XV i XVI vijeku », POF XVI - XVII, Sarajevo 1970, s. 12; The Cambridge History of Islam, Vol 1A , p 287. (٣٦)

في القرن السادس عشر كانت الجزية على السكان المسيحيين في شمال البانيا لا تتجاوز ٤٥ آقجة ، بينما ارتفعت في بداية القرن السابع عشر الى ٣٠٥ آقجة ثم الى ١٧٨٩ آقجة (٣٧)

Stanoje Stanojevic, Od Velbuzda do Kosova, Beograd 1931, s. 20 .

Dr. Ilija A. Przic, Zaztita manjina, Beograd 1933, s. 40; Vladimir Djuro Degan, Medjunarodnopravno uredjenje položaja muslimana sa osvrtom na uredjenje položaja drugih vjerskih i narodnosnih skupina na području Jugoslavije , Prilozi, Institut za istoriju radnickog pokreta, br. 8, Sarajevo 1972, s. 57. (٣٠)

G. Ll. Arsh - I. G. Senkoviç - N. D. Smirnova, Histori e shkurtë e Shqipnisë, përkthyes Z. Cana e A. Karagdiu, Prishtinë 1967, f. 14 - 15; Barbara Jelavich, Op. cit., pp. 30-31 . (٣١)

H alil Inalcik , « Ottoman Methods of Conquest », Studia Islamica II, Paris 1954, pp. 103, 115 - 116 ; The Cambridge History of Islam, Vol 1A, Cambridge 1970, p. 283. (٣٢)

ومن المؤرخين العرب نجد ان الشناوي قد ادرك وسلم بذلك على نحو واضح :  
« كان ادخال نظام التيمارات في البانيا من الاسباب التي ادت الى انتشار الاسلام فيها منذ بداية الحكم العثماني . وقد رأت الدولة العثمانية ان من حسن السياسة وبعد النظر لاستقطاب الالبانيين نحو الدين الاسلامي الا تجعل اعتناق الاسلام شرطا أساسيا لمنح التيمارات .. وكانت النتيجة ان ارباب الانقطاع الالبانيين الذين منحهم العثمانيون



والألبانيين في يوغسلافيا حول هذه القضية. فالباحثون الصربون يرون أن الكثير من الصربين في كوسوفا ومكدونيا أصبحوا ألبانيين بعد اعتناقهم الإسلام. وبينما يقدر البعض عدد هؤلاء الذين ذابوا في الألبانيين بنحو مئة ألف صربي، يذهب البعض الآخر أبعد من ذلك ليقدر أن نسبة كبيرة من الألبانيين في كوسوفا هم من الصربين الذين اعتنقوا الإسلام :

J. Hadzi - Vasiljeic, Musliman nase krvi u Juznoj Srbiji, Bratstvo 19, Beograd 1925, s. 21 - 94 .

أما الباحثون الألبانيون في يوغسلافيا فيرفضون تماما هذه الآراء :

Skender Rizaj, Kosova gjatë shekujve XV, XVI dhe XVII, Prishtinë 1982, f. 475; Pirraku I, f. 18.

ولكن يلاحظ هنا أن المؤرخين الألبانيين على استعداد لتقبل الرأي الآخر الذي يقول بدوبان بعض الأتراك مع الألبانيين :

Rizaj, Kosova gjatë shekujve, f. 467 ; Zija Shkodra , Qyteti shqiptar gjatë Rilindjes kombëtare , Tiranë 1984 , 31.

Myderrizi , Emri i vjetër kombëtar i Shqipërisë në tekstet Vjetra shqip me alfabet latin dhe aran, Studime historike , nr. 1 , Tiranë 1965, f. 164 - 166.

وليزيد من التفاصيل حول هذا انظر بحثنا: الألبانيون عدة تسميات لامة واحدة ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مجلد ٦٣ ، ج ٤ ، دمشق ١٩٨٨ ، ص ٦٧٧ - ٦٨٥ .

في النصف الثاني للقرن السابع عشر . ومع أن هذا الارتفاع الكبير يعود أيضا إلى التضخم وتدني قيمة العملة العثمانية في ذلك الوقت إلا أنه كان له أثره على كل حال :

Kristo Frashëri, The History of Albania, Tirana 1964, p. 95 ; Jelavich, p. 81.

(٣٨) تجدر الإشارة إلى أن بعض الباحثين المتخصصين في هذا المجاؤ يعتبرون أن الإسلام قام بدور مشابه منذ ظهوره بتوحيده للقبائل العربية في شعب واحد وفي شمال إفريقيا بتعريب الشعوب هناك ليتشكل من كل هذا « أمة عربية واحدة ». انظر : بروملي - بودولني ، الإثنوس والتاريخ ، ترجمة طارق معصراني ، موسكو ، دار التقدم ، ١٩٨٨ ، ص ٦٥ - ٦٦ .

إلا أن بعض المؤرخين العرب يعتبرون أن ما حدث في شمال إفريقيا كان « تحريرا » للعرب هناك ، ولذلك يخرجون القضية من هذا الإطار .

(٣٩) من هؤلاء الباحثين نشير مثلا إلى ياكوف ميلاي مؤلف كتاب « الجنس الألباني » وهو من الألبانيين المسيحيين الذين لا يمكن اتهامهم بالتحيز للإسلام :

Jakov Milaj , Raca shqiptare , Tiranë 1944, f. 78.

(٤١) وكان هذا الكتاب قد صدر في تيرانا في وقت واحد تقريبا مع كتاب آخر يتعرض إلى هذه النقطة بشكل مباشر .

« لو لم يعتنق الألبانيون الإسلام لكانوا قد ذابوا تماما في المحيط السلافي » :

H. Kokalari , Kosova djep i shqiptarizmit, Tiranë 1943, f.16

(٤٠) هناك خلاف كبير بين الباحثين الصربين

وعلى المستوى العملي أصبح يقال للتندر ان ما بني من جوامع في العهد الشيوعي يماثل أو يتجاوز ما بني في العهد العثماني .

Skender Rizaj , Kosova gjatë shekujve XV , XVI dhe XVII, Prishtinë 1982, f. 460 - 479 . (٤٧)

Dr. Muhamed Pirraku, O isla - mizaciji i ulozhi islama u integ - raciji albanske naronosti, I , Dituria islama nr. 15-16 , Pri - shtinë 1990 , f. 15 - 23 , Dituria islme nr. 17, Prshtinë 1990, f. 25 - 31 . (٤٨)

حول هذا لدينا دراسة قيمة صدرت مؤخرا: (٤٩)

Odile Daniel , The historical Role of the Muslim Community in Albania , Central Asian Survey , vol. 9, No 3, 1990 , pp. 18 - 22.

ولزيد من التفاصيل انظر ما نشرناه في العربية :

الدين والمسألة الدينية في البانيا ، العربي عدد ٣٣٩ ، الكويت اكتوبر ١٩٧٨ ، ص ١٢٩ - ١٢٨ .

انظر على سبيل المثال : (٥٠)

Aleks Buda , Shkrime historike I, Tiranë 1986, f. 72, 76-78.

Zija Shkodra, Qyteti shqiptar gjatë Rilindjes kombëtare , Tiranë 1984 , f. 27 . (٥١)

هناك من يرى بين الباحثين ان اقبال انصار الكنيسة البوغوميلية في البوسنة على اعتناق الاسلام ارتبط ببساطة الاسلام وتحريمه للصور : (٥٢)

(٤٢) برومليه - بودولني ، الاتنوس والتاريخ ، ص ٦٨ .

(٤٣) يشير الكاتب الالباني المعروف فائق كونيتسا ( ١٨٧٦ - ١٩٤٢ ) في كتابه « البانيا » ، الذي ألفه خلال ١٩٣٦ - ١٩٣٨ ، الى تبلور رأيين متناقضين بين المثقفين الالبانيين في ذلك الحين حول هذا الموضوع : الرأي الاول يقول بأنه لو بقي الالبانيون مسيحيين لداؤوا كلهم في الشعوب المجاورة ، والرأي الثاني يذهب الى ان الالبانيين لو بقوا مسيحيين لكان وطنهم أكبر الان ولكن قد تحرر قبل غيره :

Faik Konica , Shqipëria kopsht shkëmbor i Evropës Jugolin - dore, Prishtinë 1990, f. 159-160

وتجدر الإشارة هنا الى ان هذا الكتاب الهام عن البانيا والالبانيين كان قد صدر سابقا في الانكليزية :

Faik Konitza, Albania the Roch Garden of Southeastren Europe, Boston , VATRA , 1957 .

H. Kokolari, Kosova diepi i shqiptarizmit, Tiranë 1943 f. 16; Jakov Milaj , Raca shqiptare , Tiranë 1944, 78. (٤٤)

(٤٥) يبدو هذا الافتتاح على المستوى النظري ، وخاصة بعد القطعية مع الستالينية سنة ١٩٤٨ ، في مواقف كثيرة حتى أصبحت « الماركسية اليوغسلافية » تنهم بابتعادها عن ماركس في موضوع الدين بالذات :

Dr. Ivan Cvitkovic , Savez Kominista Jugoslavije i Religijia, Beograd , Rednicka stampa , 1982, s. 35 .

البوسنة ، اذ ان كل طرف كان يحاول اثبات حقه في البوسنة بالتأكيد على «الاصل الصربي» أو «الاصل الكرواتي» للمسلمين فيها . وقد أخذ هذا التنافس بعد خلق يوغسلافيا (١٩١٨) أبعادا سياسية وسلطوية معقدة . وقد بقي هذا الموضوع يثير الجدل والخلاف في يوغسلافيا الاشتراكية الى ان أخذت « الموسوعة اليوغسلافية » بموقف وسطي يقول ان المسلمين في البوسنة ينحدرون في أصولهم من الصربين والكرواتيين ومن بقايا العناصر الاليرية والفلاهير التي ذابت في البوتقة السلافية :

Enciklopedija Jugoslavije, II izdanje, vol. 2 , Zagared 1982, s. 227 .

(٥٦) حسب التقرير الذي رفعه يرونيو زلاتاريش J. Zlataric الى الملك النمساوي فرديناند سنة ١٥٩٩ ورد ان المسلمين في البوسنة « يشكلون أغلبية السكان » . وفي ١٦٢٤ ذكر P. Mazareki المؤنف البابوي بيتر مازاركي في تقريره الى البابا بعد زيارته للبوسنة ان المسلمين يؤلفون ثلاثة أرباع السكان وان المسيحيين من كاثوليك واثوذكس يؤلفون الربع الآخر . وخلال القرن السابع عشر استمر الوضع على هذا الشكل بالاستناد الى ما لدينا من تقارير عديدة . الا ان عدد المسلمين أخذ ينخفض منذ القرن الثامن عشر نتيجة للحروب والمجاعات والهجرات ، حتى أصبح مساويا لعدد المسيحيين في مطلع القرن التاسع عشر ، وبالتحديد ٦٠٠ ألف من مجموع عدد السكان الذي وصل حينئذ الى مليون و ٢٠٠ ألف :

Atif Purivatra , Jugoslovenska muslimanska organizacija u politickom zivotu Kraljevine

E. Durham , Njžet vjet nagtë - rresa ballkanike, Tiranë 1944 , f. 140 ; Aleksandar Solovjev , Nestanak bogumistva i islami - zacija Bosne, Godisnjak Drusva isticara BiH I, Srajevo 1949 , s. 42 - 79 .

Smail Balic , Kultura Bosnjaka, (٥٣) Wien 1973, s. 17.

(٥٤) حتى الماركسيين في يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية أقروا بدور الدين في هذه السيرة الفريدة ( تشكيل ثلاثة شعوب تتكلم لغة واحدة ) مع اختلافهم في وصف هذا الدور - هل هو « دور حاسم » أو « دور معين » :

« لا بد ان نأخذ بعين الاعتبار ان الدين لعب دورا معينا في تشكيل بعض الشعوب اليوغسلافية ( الصربيين ، الكرواتيين ، المسلمين ) التي تتكلم لغة واحدة - اللغة الصربوكرواتية » :

Cvitkovic , Savez Kominsta i religija , s. 101 .

ومن المثير ان الباحثين السوفيتيين المعاصرين بروملية وبودولني تعرضا في كتابهما الى دور الدين في تشكل الشعوب اليوغسلافية التي تتكلم لغة واحدة ، ولكنهما اکتفيا بذكر الصربيين والكرواتيين دون أن يشرآ الى الشعب الثالث : بروملية - بودولني، الانوس والتاريخ ، ص ٦٤ .

(٥٥) خلال القرن التاسع عشر ، ومع بروز الحركات القومية التي تبحث لنفسها عن حدود أوسع ، بدأ التنافس الصربي - الكرواتي حول

وبالاستناد الى هذا أصبح « الشعب  
Muslimanski narod المسلماني »

أحد الشعوب الرئيسية المؤلفة ليوغسلافيا.  
حول هذا التطور المهم انظر :

Kasim Suljevic , Nacionalnost  
Muslimana, Rijeka 1981 .

Srba , Hrvata i Slovenca ,  
Sarajevo 1997, s. 359 .

(٥٧) تجدر الإشارة هنا الى ان هذا الاسم لم  
يقبل بسهولة في يوغسلافيا الملكية (١٩١٨-  
١٩٤١) ولا حتى في يوغسلافيا الاشتراكية،  
وقد اثار جدلا بين المنظرين والمؤدجين الى  
ان تم الاعتراف به أخيرا في الستينات .

\* \* \*